المحاضرة الثانية إبن خلدون حياته وآثاره

أهداف التعليم :

* التعرف على الفكر الخلدوني

* التعرف على العصر الذي عاش فيه إبن خلدون

* التعرف على قراءات إبن خلدون للفكر اليوناني

* التعرف على فكر العصور الوسطى

لقد مر إبن خلدون في حياته بأربعة مراحل متباينة إحتوت كل مرحلة منها على معطيات خاصة من نشاطاته المختفلة العلمية والعملية :

المرحلة الأولى : وهي مرحلة النشأة والتلمذة والتحصيل العلمي .

المرحلة الثانية : مرحلة الوظائف الديوانية والسياسية.

المرحلة الثالثة : مرحلة التفرغ للتأليف.

المرحلة الرابعة : مرحلة وظائف التدريس والقضاء .

1- **مرحلة النشأة والتلمذة والتحصيل العلمي** :هو ولي الدين عبد الرحمن بن محمد بن محمد بن محمد بن الحسن بن محمد بن جابر بن محمد بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن خلدون الخضرمي، وهوالمكنّى بأبي زيد، حيث ذكر إبن خلدون نسبه بهذا الشكل وقال:" لا أذكر من نسبي إلى خلدون غير هؤلاء العشرة"، كما يتّصل نسبه إلى الصحابي وائل بن حجر، الذي قدِم إلى النبي- صلّ الله عليه وسلم- فبسط له رداءه، وأجلسهُ ودعا له.كان العصر الذي عاش فيه إبن خلدون هو نهاية العصور الوسطى وبداية عصر النهضة ، حيث عاش إبن خلدون في القرن الرابع عشر الميلادي (الثامن الهجري) . وتميز هذا العصر بأحداث هامة في

مختلف النواحي السياسية والفكرية وغيرها ، ففي أوروبا كانت بوادر النهضة تبرز تدريجيا . أما بالنسبة للدولة الإسلامية فقد كانت على العموم تعيش لحظات تدهور وإنحدار.

في عصر ابن خلدون كان العالم الاسلامي ينقسم إلى قسمين: المغرب والمشرق

فالمنطقة التي تمتد من مصر إلى المحيط تسمى المغرب في حين أن المنطقة الممتدة من مصر وما يليها من البلاد العربية كانت تسمى المشرق

أما الأندلس فكانت مغربية بحكم وضعها الجغرافي وإن كانت منفصلة عما يسمى "ببلاد المغرب". (إن أضفنا الأندلس على بلاد المغرب تصبح التسمية الغرب الاسلامي اندثرت هذه التسمية بعد سقوط غرناطة .

بالنسبة للمغرب فقد كان مجزءا إلى ثلاث دول : بنو مرين في المغرب الأقصى، بنو عبد افريقيا. كانت دولة "الواد في المغرب الأوسط وبنو حفص في المغرب الأدنى والذي يسمى بنو عبد الواد أضعف هذه الدول وأشدها تعرضا للفتن والتقلبات لأنها كانت محصورة بين دولتين .

ولد بتونس في أول رمضان سنة 732 هجرية(27 ماي 1332) وأصل أسرته من حضرموت (جنوب الجزيرة العربية) ودخل " أحد أجداده وإسمه خلدون بن عثمان إلى الاندلس في أواخر القرن الثالث الهجري . وإستقر بإشبيليا ... وتقلدت الأسرة الخلدونيةمناصب جد عالية على الصعيدين : السياسي والعسكري . وسطع نجم بيت في عهد الدولة الأموية".ولم يخبر إبنفي ترجمته بأي شيء عن تربيته الحقيقية وفضل الصمت إزاء أحواله وحياته العائلية . ولم يتكلم أيضاإبن خلدون عن العلوم التي تلقاها عن أبيه ، ويذكر الرواة أن والده محمد إبن خلدون علم ولده القراءة والكتابة ومبادئ النحو والأدب والفقه. دخل إبن خلدون إلى الأندلس مع الغزاة العرب ثم إنتقلت أسرته إلى إشبيليا . وعندما إستولىإبنأدفونش على إشبيليا إنتقلت الأسرة إلى تونس وذلك في منتصف القرن السابع الهجري.ويذكر إبن خلون في مقدمته أن الكتب التي درسها واسعة التعمق في العلم والعرفان وكانت نادرة في عصره في تونس . وعلى كل حال فإن

التربية التي تلقاها إبن خلدون كانت عادية مثل تلك التي يتلقاها أي فرد في المجتمع الذي يعيش فيه ، فقد حفظ القرآن ورواه بالقراءات السبع.

يعتبر عبد الرحمان ابن خلدون من أعظم المؤرخين لإسهاماته الهامة في الاقتصاد وعلم الاجتماع والتأريخ. أعطى نظرة شاملة وحقيقية في موضوع التاريخ وكتابة تاريخ الحضارة بمعناها الشامل. وإطلع على السنة من كتابين شهيرين هما موطأ مالك وصحيح مسلم والشي القليل من صحيح البخاري. . ودرس الفقه في الكثير من المختصرات من كتاب الفقه المعروف وهو المدونة .

عندما بلغ إبن خلدون الثامنة عشرة من عمره وقع حادثان كانا لهما بالغ الأثر على نفسيته . أما الحادث الأول فكان إنتشار الطاعون سنة 749 هـ في أغلب بلدان العالم بما فيها إيطاليا و الأندلس، وقد سماه إبن خلدون ° الطاعون الجارف° الذي أهلك والديه وكل من كان يأخذ عنهم العلم من المشايخ والدعاة .وفي هذا يقول إبن خلدون" لم أزل منذ نشأت وناهزت مكبا على تحصيل العلم حريصا على إقتناء الفضائل ، متنقلا بين دور العلم وحلقاته ، إلى أن كان الطاعون الجارف، وذهب بالأعيان والصدور، وجميع المشيخة وهلك أبواي رحمهما الله". أما الحادث الثاني فهو تلك الهجرة الجماعية لعلماء تونس آنذاك إلى المغرب الأقصى سنة 750.هاذان الحادثان كان من شأنهما أن تغيرت حياته كلية ، وراح يتطلع إلى البحث عن الوظائف عن العامة والحفاظ على المسار الذي سار فيه جداه الأول والثاني وكامل أسرته.وفي موقع آخر يذكر إبن خلدون في ترجمته أنه أكمل دراسته في سن العشرين ، وتحصل من أساتذته على ما يسمى بالإجازة التي تسمح له بتدريس الطلبة . وبهذه الإجازة بقي يدرس في جامع الأزهر في مادتي السنة ودرس القرآن . 2- **مرحلة الوظائف الديوانية والسياسية** : بعد وفاة السلطان أبو قابوس ملك المغرب الأقصى ، خلفه أبنه أبو عنان ، وكان أبو خلدون حينذاك متواجدا ببسكرة، ومنها سعى للإتصال بالسلطان الجديد فكان له ما أراد في مدينة تلمسان . وبعد أن كسب إبن خلدون ثقة السلطان وافق على تعيينه المجلس العلمي للسلطان بفاس . لكنه سرعان ما إقتنع أن الوظيفة التي تقلدها خطيرة ولا تتناسب مع طموحاته الكبيرة وفي هذا يقول" وقدمت عليه سنة خمس وخمسين (وسبعمائة) ، ونظمني في أهل مجلسه العلمي ، وألزمني شهود الصلوات معه ، ثم إستعملنيفي كتابته والتوقيع بين يديه ،على كره مني، إذ كنت لم أعهد مثله

لسلفي". ونتيجة لهذا الوضع راح إبن خلدون يشارك في الدسائس التي تحاك ضد السلطان أبا عنان ، لكن ما إن بلغ أمر هذه المؤامرة للسلطان سارع أبا عنان إلى القبض على المتآمرين ومنهم إبن خلدون وقام بسجنهم وكان ذلك سنة 758 هـ . وبقي إبن خلدون سجينا مدة عامين كاملين . وبعد أن خطف الموت السلطان أبا عنان حكم بعده الوزير الحسن بن عمر الذي قام بإطلاق سراح إبن خلدون وجميع من كانوا معه في السجن وأعاده إلى سابق وظائفه التي كان يشغلها أيام السلطان أبا عنان. وعلى العموم لقد بلغت الفترة التي قضاها في المغرب الأقصى حوالي ثمان سنين ، منها عامين في السجن وستة سنوات تقلد فيها مناصب متعددة بفاس. 3- **مرحلة التفرغ للتأليف** :إلتحقإبن خلدون بأسرته في قلعة إبن سلامة ببلاد توجين قرابة أربع سنوات تفرغ فيها للدراسة والتأليف ، فألف كتابه التاريخي الشهير كتاب العبر الذي عرف فيما بعد بإسم ° مقدمة إبن خلدون° ويشمل " خطبة الكتاب التي تشغل نحو سبع صفحات ، وتمهيدا صغيرا أسماه إبن خلدون (المقدمة في فضل علم التاريخ) ويشغل نحو ثلاثين صفحة ، والكتاب الأول من مؤلفه ويشمل على ستة أبواب كبيرة في شؤون العمران ويشغل نحو ستمائة وخمسين صفحة)".

ومما تجدر الإشارة إليه أن إبن خلدون قد إستغرق في كتابة مقدمته خمسة أشهر فقط ، وهو الأمر الذي جعله يبدي دهشته وإعجابه في نفس الوقت ، لأن مقدمة كمقدمته كان مفروضا أن تستغرق أكثر من ذلك بكثير. لكن بعد إنتهاءه من بحثه القيم إرتأىإبن خلدون أنيعيد تنقيحه وتصحيحه ، وهو ما دفعه للعودة إلى تونس حيث تتوفر هناك المصادر والمراجع والمكتبات الغنية بالمطلوب . وبقي هناك حتى أتم تنقيح وتهذيب بحثه بشكل كامل . وفي هذا يقول " أكملت منه أخبار البربر وزناتة وكتبت من أخبار الدولتين وما قبل الإسلام وما وصل إلي منها ، وأكملت منها نسخة رفعتها إلى خزانة السلطان". محتويات مقدمة إبن خلدون : جاءت المقدمة شيئا ثمينا من العلم والمعرفة، بل ومتقدمة على العصر الذي كتبت فيه ، وهي تحتوي على ستة فصول : 1- في العمران البشري : وهي تقابل علم الإجتماع العام ، وقد درس إبن خلدون ظواهر المجتمع البشري ، والقواعد التي تسير عليها المجتمعات . . 2- في العمران البدوي ، وقد درس الإجتماع البدوي .كاشفا أهم خصائصه المميزة، وأنه أصل الإجتماع

الحضري وسابق عليه . 3- في الدولة والخلافة والملك ، وهو يقابل علم الإجتماع السياسي، وقد درس قواعد الحكم والنظم الدينية وغيرها .
4- في العمران الحضري ، وهو ما يقابل علم الإجتماع الحضري ، وقد شرح جميع الظواهر المتصلة بالحضر ، وأصول المدنية ، وأن التحضر هو غاية التمدن .
5- في الصنائع والمعاش والكسب ، وهو ما يقابل علم الإجتماعالإقتصادي ، وقد درس تأثير الظروف الإقتصادية على أحوال المجتمع . 6- في العلوم وإكتسابها ، وهو ما يقابل علن الإجتماع التربوي ، وقد درس الظواهر التربوية وطرق التعلم وتصنيف العلوم . كما درس إبن خلدون الإجتماع الديني والقانوني ، رابطا بين السياسة والأخلاق .

وعلى هذا الحال يكون إبن خلدون قد بقي في المغرب حوالي ثمان سنين تفرغ فيها للدراسة والتأليف ، منها أربع سنوات كانت في قلعة إبن سلامة بالمغرب وأربع سنوات أخرى كانت في تونس.4- **مرحلة وظائف التدريس والقضاء في مصر** : عندما سافر إبن خلدون إلى مصر توجهإلى الأزهر وكان حينذاك في سن الثانية والخمسين من عمره، وهناك إتخذ من أروقة جامع الأزهر الذي لقي فيه كل الترحاب مكانا للإلتقاء مع طلابهومريديه . ويذكر إبن خلدون شدة الإقبال عليه فيقول" ولما دخلتها ، أقمت أياما، وإنثال طلبة العلم علي بها ، يلتمسون الإفادة مع قلة البضاعة، ولم يوسعوني عذرا ، فجلست للتدريس في جامع الأزهر".

كان ملك مصر في ذلك العهد الظاهر برقوق الذي قام بعزل قاضي قضاة المالكية آنذاك جمال الدين عبد الرحمان بن سليمان بن خير المالكي وقام بتعيين إبن خلدون مكانه ، بعدما ساد حينذاك فسادا وإظطرابا كبيرين ، فعمل إين خلدون على إصلاح ما أفسده سابقه وعمل على تحقيق العدالة في أحسن صورها حسب شهادات من عاصروه من المؤلفين والكتاب .وفي هذا يصف أبو المحاسن ولاية إين خلدون بقوله" فباشره بحرمة وافرة ، وعظمة زائدة ، وحمدت سيرته ، ودفع رسائل أكابر الدولة ، وشفاعات الأعيان".وهذه الصرامة التي تميز بها إبن خلدون في تحقيق العدالة بين الناس، كانت سببا في تزايد السخط عليه وكثرة الوشاية في حقه لدى السلطان ، فهو مغربياولم يكن مصريا ، وكل علماء مصر في ذلك الوقت كانوا يطمحون إلى تولي منصب قاضي القضاة بإعتباره أهم منصب في الدولة . ووصفا منه لهذه المرحلة الحاسمة من تقلده لمنصب قاضي القضاة في مصر قائلا : "فقمت بما دفع السلطان إلي من ذلك المقام المحمود ، ووفيت جهدي بما

أمنني عليه من أحكام الله ، لا تأخذني في الحق لومة ، ولا يزعني عنه جاه ولا سطوة ، مسويا في ذلك بين الخصمين ، آخذا بحق الضعيف من الحكمين ...وفشت المفاسد بالتزوير والتدليس بين الناس منهم ، ووقفت على بعضها فعاقبت فيه بموجب العقاب ،ومؤلم النكال . وتأدى إلي العلم بالجرح في طائفة منهم ". الأمر الذي أدى إلى إنطلاق الألسنة وإرتفاع الصخب ضد قاضي القضاة المغربي إبن خلدون " فأبيت في كل ذلك إلا إغطاء العهدة حقها ن والوفاء لها ولمن قلدني إياها ، فأصبح الجميع علي ألبا ..وفي النكير علي أمة ..وإنطلقت الألسنة وإرتفع الصخب .. وأرادني بعضهم على الحكم بغرضهم فوقفت ..فغدوا على حرد قادرين". ومهما يكن من أمر فقد كثرت الدسائس والمكائد على إبن خلدون من أهل الدولة، وشيئا فشيئا بدأت فكرة التخلي عن هذا المنصب تتقوى تدريجيا وزادها قوة فقدان إبن خلدون لزوجته وأولاده في غرق السفينة القادمة من المغرب إلى مصر . فكثر علي الشغب قيما يقول إبن خلدون " من كل جانب ، وأظلم الجو بيني وبين أهل الدولة . ووافق ذلك مصابي بالأهل والولد ، وصلوا من المغرب في السفين ، فأصابها قاصف من الريح فغرقت ، وذهب الموجود والسكن والمولود ، . فعظم المصاب والجزع ، ورجح الزهد وإعتزمت على الخروج عن المنصب".

في سنة 801 هـ توفي الظاهر برقوق ، وخلفه إبنه الناصر، فأعادإبن خلدون إلى منصب قاضي القضاة بعد إقصائه منه لمدة أربعة عشرة عاما ، ولم تمض ثلاثة أشهر بعد عودته من زيارته لفلسطين حتى عزل من المنصب، وبعدها عاد إلى مهنته الأصلية التدريس والتأليف . توفي إبن خلدون في السادس والعشرين من رمضان سنة 808 هجرية الموافق 16 مارس 1406 م عن ستة وسبعين عاما .

إبن خلدون وعلم العمران : من دراساتإبن خلدون في مقدمته نتج علم جديد ، وقد سماه علم العمران البشري وهذا ما نسميه اليوم السوسيولوجيا، أي العلم الذي يتناول بالدراسة الظواهر الإجتماعية بهدف الكشف عن القوانين التي تتحكم فيها .

يروي إبن خلدون أن هذا العلم الذي إكتشفه لم يسبقه إليه أحد . وفي هذا يقول " وإعلم أن الكلام في هذا الغرض مستحدث الصنعة ، غريب النزعة ، غزير الفائدة ، أعثر عليه البحث ، وأدى إليه الغوص. تثبت مقدمة إبن خلدون إكتشافه لهذا العلم ، فهو قد صرح في عبارات واضحة أنه اكتشف علما مستقلا، لم يتكلَّم فيه السابقون؛ إذ يقول: "وكأن هذا علم مستقل

بنفسه، فإنه ذو موضوع، وهو العمران البشري والاجتماع الإنساني، وذو مسائل؛ وهي بيان ما يلحقه من العوارض والأحوال لذاته، واحدة بعد أخرى، وهذا شأن كل علم من العلوم، وضعيا كان أوعقليا".

ويقول أيضًا: "واعلم أن الكلام في هذا الغرض مستحدث الصنعة، غريب النزعة، أعثر عليه البحث، وأدى إليه الغوص... وكأنه علم مستنبط النشأة، ولعمري! لم أقف على الكلام في منحاه لأحدٍ من الخليقة، ما أدري: ألغفلتهم عن ذلك، وليس الظنُّ بهم؟ أو لعلهم كتبوا في هذا الغرض، واستوفوه، ولم يصل إلينا".

يفهم إبن خلدون العمران على أنه هو الإجتماع الإنساني المبني على علاقة البشر بالأرض المعمورة أي البيئة الطبيعية وعلى " صلة بعض البشر ببعض في المكان الواحد والأمكنة المتفرقة (البيئة الإجتماعية) . ويجتمع البشر حتى يتغلبوا على مصاعب البيئة الطبيعية في الدرجة الأولى ثم لتوفير الراحة والترف بإستنباط الصناعات وإستخراج القوانين وترتيب المعاملات".

يتفق جميع الباحثين الذين أنصفوا ابن خلدون بأنه هو أول من ناقش ما أسماه ب :

" الأحوال الإجتماعية الإنسانية والمظاهر الإجتماعية وواقعات العمران البشري" .

لقد قسم إبن خلدون مفهوم "العمران" إلى ثلاثة أقسام من التجمعات البشرية تشمل: التجمع الطبيعي، والبدوي، والحضري، وأقام روابط شبه ضرورية في تحديد الأسبقية الزمنية في التحوّل والانتقال من نمط إلى آخر، كما هو واضح في تفسيره لنشأة الملك وتأسيس الدولة بوصفها كياناً سياسيا .

إن الخلفية الشرعية التي ميّزت التكوين العلمي لإبن خلدون تشكل سبباً كافياً لطرح أسئلة حول علاقة مفاهيمه ومنهجه بمصادر الوحي، بل يعدّ طرحها من الأولويات المنهجية التي أسهمت في فتح مجالات جديدة تتجاوز التفسيرات التقليدية المادية والعلمانية. وهذه الخطوة تساعد الباحث على تفسير كثير من القضايا التي دار حولها الجدل، كمسألة "حداثة الفكر الخلدوني"، وصلاحية تفسيراته التي وضعها قبل ستمئة سنة في معالجة القضايا المطروحة في الوقت الراهن .